

الدفاع عن السنة الجزء الرابع

الكاتب: أبو إسحاق الحويني



قصة إبراهيم عليه السلام

جاء في قصة إبراهيم عليها السلام في سورة الأنعام دليلٌ حي على ذلك: قال الله عز وجل: وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَيَكُونَ مِنَ الْمُوْقِنِينَ [الأنعام: 75] * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ [الأنعام: 76] وَأَنَا أَرِيدُ مِنْ إِخْرَانِي الْمُسْلِمِينَ أَنْ يَتَّسُوا بِقَضِيَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَنْهُ مُشْغُولٌ فِي قَضِيَّةِ مُعِينَةٍ، وَالْمُشْغُولُ لَا يَنْامُ، إِنَّهُ يَبْحَثُ عَنْ مَثَالٍ لِإِلَهٍ ذَيْ يَعْبُدُهُ، مُسْتِيقَظٌ طَوَالِ اللَّيْلِ.. لَا يُسْتَطِيعُ أَنْ يَنْامَ؛ لِأَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ شَغَلَتْهُ: فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ انْظَرَ إِلَى التَّعْبِيرِ هَذَا.. كَانَ لَيْسَ فِي الْكَوْنِ غَيْرَهُ، وَلَمْ يَلْفِ الظَّلَامَ أَحَدًا فِي الْكَوْنِ غَيْرَهُ، هُوَ الْمُسْتِيقَظُ، وَكَلْمَةُ (جَنَّ) أَيْ: وَصَلَ إِلَى أَعْمَقِ الْلَّيْلِ، (جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا [الأنعام: 76] كَلْمَةُ (جَنَّ) تَبَيَّنَ لِكَ الْصُّورَةُ، جَنَّ: يَعْنِي كَبَدُ اللَّيْلِ، اللَّيْلُ مُظْلَمٌ مَائِةً بِالْمَائَةِ.. فَتَخَيلُ كَوْكَبًا مُضِيَّا فِي ظَلَامٍ دَامِسٍ، يَلْتَفِتُ يَمْنَةً وَيَسْرَةً لَا يَرَى فِي الدُّنْيَا إِلَّا هَذَا الْكَوْكَبُ، فَأَجْمَلُ شَيْءٍ فِي الدُّنْيَا هُوَ هَذَا الْكَوْكَبُ؛ لِذَلِكَ قَالَ: هَذَا رَبِّي، رَبِّي جَمِيلٌ.. رَبِّي كَاملٌ.. رَبِّي لَا يَعْتَرِيهِ نَقْصٌ، فَأَجْمَلُ شَيْءٍ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا هُوَ هَذِهِ النَّقْطَةُ الْمُضِيَّةُ فِيهَا كَوْكَبٌ هُوَ إِلَهٌ! يَنْسَابُ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا: رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي [الأنعام: 76] لِمَاذَا؟ لِأَنَّهُ أَجْمَلُ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ.

من عبودية القهر على كل الناس أنهم على اختلاف مشاريدهم ومذاهبهم ينسبون الجمال إلى الله، الكل.. إذا رأى شيئاً جميلاً قال: الله، الكل.. كافر، مسلم، يهودي، نصراني، مجوسية، مجرد أن يرى شيئاً وجميلاً يقول: الله، فينسبون الجمال إلى الله رغم أنوفهم.

فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْأَفْلِيْنَ [الأنعام: 76] لِمَاذَا؟ لِأَنَّ إِلَهِي لَا يَغِيبُ عَنِّي، مبتهجاً به دائمًا، فكيف يغيب هذا؟ لا يصلح أن يكون مثلًا لإلهي الذي أَعْبَدَهُ

وأجده في نفسي، فلما رأى القمر بازغاً وكملة (بازغاً) تدل على شدة الوضوح، فهو أكبر من الكوكب صورة في مرأى العين، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربِّي فلما أفلَ قال لئن لم يهدِّنِي ربِّي لا يكونَ منَ القَوْمِ الصَّالِّينَ [الأنعام: 77] * فلما رأى الشَّمْسَ بازغَةً قال هذا ربِّي هذا أَكْبَرُ هذا هو.. لماذا؟ لأنَّه مضيء.. أفضل من الكوكب والنجم وأيضاً أكبر منها، يبحث عن صفات الكمال والجلال: فلما أفلَ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ [الأنعام: 78] * إِنِّي وَجَهْتُ وَجْهِي لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ [الأنعام: 79].

إذا رائد إبراهيم عليه السلام كان الحب، والحب مركب لا يضل راكبه، العبادة بالحب تقبل ولو بالقليل، ولله در الراجز الذي قال: (وإن من البيان لسحرا). من لي بمثل سيرك المدلل تمشي رويداً وتجي في الأول يمشي على مهل، ويصل الأول! كيف هذا؟

عبادة المحب بخلاف عبادة الموظف، الموظف الذي يأتي حتى يوقع اسمه في الحاضرين أنه حضر فصل العصر وصلى الظهر!! لا، يقف الرجلان القدم بالقدم، والكتف بالكتف، وما بين صلاتيهما كما بين السماء والأرض، فسبحان من لا يعلم أقدار خلقه إلا هو!

فمعنى لا إله إلا الله محمد رسول الله.. أن تعتقد المشاهدة ولا تتم لك هذه المشاهدة إلا بالحب الذي من ثمرته التعلق. فمحبة النبي عليه الصلاة والسلام واجبة، والمحبة هي ليست محبة الطبع، إنما هي محبة الإتباع والتقدير والتعظيم وإلا فأنت قد تحب ولدك حب طبع أكثر. المحبة المقصودة: قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي [آل عمران: 31] هي محبة الإتباع، وأن لا تُقْدِم قول أحدٍ على قول النبي صلى الله عليه وسلم كائناً من كان.

دور العلماء في الأمة

الإمام العَلَمُ الذي رأته امرأة، ولله در النساء: ولو كان النساء كمثل هذى لفُضلت النساء على الرجال

فما التأنيث لاسم الشمس عيب ولا التذكير فخر للهلال
ثلاثة أئمة ملئوا الدنيا علمًا وشهرة، ريتهم أمهاتهم، وصدق فيهم قول القائل:
وراء كل رجل عظيم أم، ولا تقل: وراء كل رجل عظيم امرأة.. أبداً، ولكن قل:
وراء كل رجل عظيم أم. ثلاثة أئمة معروفون لديكم -وهناك أئمة آخرون ريتهم
أمهاتهم- الإمام البخاري، والإمام الشافعي، والإمام العلم وهو سفيان بن سعيد
الثوري، الإمام الكبير.. نحن نتدين بمحبة سفيان وأمثاله من العلماء الربانيين
كسفيان الذي يقول: (إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل).

إذا أردت أن تحك رأسك.. حبذا يكون معك دليل، لكن يكون صحيحاً. لاحظ
الحضر على اتباع السنة: (إن استطعت أن لا تحك رأسك إلا بأثر فافعل)، ثم
قال: (الحديث درج والرأي مَرْجٌ، فإذا كنت على الدَّرَجْ؛ احذر أن تزل قدمك
فتندق عنقك، وإذا كنت في المرج فسر حيث شئت).

كلام من ذهب..! اتباع السنة كالدرج، وأنت تمشي على الدرج كن على حذر؛
لأنه لو فلتت رجلك ستقع على رأسك مباشرةً، فعندما تنزل على الدرج كن
منتبهَا، إنما لو كنت تمسي في الصحراء أغمض عينيك وامش، فأينما تمسي
فستجد مكاناً.. ماذا يقصد بهذا الكلام؟

يقول: إن من اتبع رأيه وهو اه كأنما يمشي في مَرْجٌ وفي سهولٍ واسعة، أي:
فكأنك في مَرْجٌ فسر حيث شئت، طالما أنك غير محكوم.

النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (الدنيا سجن المؤمن) ما معنى سجن
المؤمن؟

مسجون بالأوامر والنواهي، كالذي يدخل السجن بين الأوامر والنواهي.. الذي
سُجن يفهم هذا الحديث جيداً، نريد أكل؟.. ممنوع، نريد ماء ولنا مال في
الأمانات.. ممنوع، أدخلوا لنا حلوة، ممنوع، نريد أن نشم هواء.. ممنوع،
كل شيء في السجن ممنوع!! فأنت كل ما تشتهيه تستطيع أن تفعله، ترغب
أن تكون غنياً وممنوع من أن تضع مالك في البنوك، ترغب في أن تفرغ
شهوتك وممنوع من الزنا، ترغب أن تفعل كذا وكذا.. وممنوع أن تفعل كذا
وكذا.. فأنت مسجون أم لا؟

مسجون، الذي ترغب فيه لا تستطيع عمله، عمر بن الخطاب رضي الله عنه

يقول: (لم يستوف مؤمنٌ غضبه في الدنيا أبداً)، لا يستطيع أن يستوفي..
يُظلم فيقول: أنا سوف أؤجل المحاكمة إلى يوم القيامة، فيكون مغتاظاً يريد أن
يرد الصاعين ولا يستطيع أن يستوفي غضبه أبداً، لماذا؟ لأجل يوم
القيامة، محاكم الأرض فيها ملائين القضايا، وكثير من الناس أجلت مظلومهم
إلى يوم القيامة، لو كل واحد ضرب ضربة واحدة وذهب إلى المحكمة أو ذهب
إلى الشرطة، ما كانوا يرون النوم. فالإيمان بيوم القيامة أسقط ملائين القضايا
عن المحاكم، وكثير من الناس أجلوا المظالم، يقول النبي صلى الله عليه
وسلم: (الدنيا سجن المؤمن) يعني: ليس كل ما تريده تفعله، مسجون.
والسجن هذا هو الدرج (فاحذر أن تزل قدمك فتندق عنقك) ولله تبارك وتعالى
في كل شيء في الدنيا حكم علمتها أو جهلتها؛ فقبل أن تقدم على أي قضية
من القضايا ارفع يَا أخِي- سماعة الهاتف وسائل العالم، سؤال العالم مجاناً؟
أتمنى أن يجد هذا الكلام صدى عند التجار الكبار والصغار، أيها التاجر! لك
مستشار قانوني يأخذ مقابلًا ماليًا وله نسبة، ولك محام يدافع عنك، وتعطيه
راتبًا ماليًا طوال العام، وتعطيه حواجز مالية، فهل عندك مفت مجانًا؟ لن تدفع
له راتبًا مثل المستشار القانوني أو المحامي، ترفع سماعة الهاتف وتقول له:
أنا أريد أن أعقد الصفقة الفلانية، هل هذا مشروع أم لا؟ هل هذا حرام أم لا؟
لا يكلفك شيئاً.

نحن دولة مستهلكة مثل سائر العرب! أصحاب المصانع هم المتحكمون في
البيوع، والأصل في البيوع الحل؛ لكن هؤلاء الذين يريدون أن يحققوا أعلى
نسبة أرباح، ويريدون أن يضمنوا بضائعهم والأموال، قد يضعون شرطاً لا يحل
في دينك، وحرام عليك أن تفعله، هو كافر لا يهمه.. يهمه أن يضمن ماله
ويكسب، أنت كرجل مستهلك تذهب فتقول: أنا أريد البضاعة الفلانية فيقول
لوك: أنا شرطي كذا وكذا.. وهذا رجل كافر لا يحكمه دين، وأنت عندما تحتاج
البضاعة تعقد معه الصفقة وترتكب الحرام؛ لأن الذي وضع شروط الصفقة هو
الرجل المصنّع.

فالعالم مهم جداً جداً في هذا الزمن، لا أقول: للتجار فقط، بل للكل، فلو أن
شخصاً عنده مرض قلب أو تصلب في الشرايين أو ذبحة صدرية أو ضغط دم

أو ضيق في الصمام، أو أي مرض، فإنه يذهب إلى أي طبيب من أمراض القلب والدم، ويكون معه في حوار ساخن باستمرار: يا دكتور! أنا أحسست بكذا، هل هذا له علاقة بالشريان التاجي؟ هل له علاقة بالذبحة؟ يقول له: لا، أو يقول له: نعم، أو يقول له: لا تفعل.. وهكذا، مرة أخرى، وفي كل هذا يمثل!. فهل لما قسا قلبك أكان لك مستشار لأمراض القلب وضغط الدم؟ بمجرد أن تشعر بقسوة قلبك تتصل به وتقول له: أنا أشعر بقسوة.. أقرأ القرآن ولا يهتز قلبي ولا يذرف دمعي، كم نحن مقصرون! الاستشارة مجانية، وأي واحد يرفع سماعة الهاتف ويتصل بعالم من العلماء ويطلب أجرة فليتقدم بشكوى فيه، وتجد العالم يفرغ من صدره ووقته، وأنت رجل تاجر والساعة عندك تساوي المال، وهو أيضًا ساعته أغلى من المال، لكنه كتب على نفسه: وقف للMuslimين. فأوقف عمره وحياته لك، ومع ذلك لا ترفع له رأساً ونبذه نبذ النواة، ولم تستشره، لا في صفقة تجارية، أهذا حلال أم حرام؟ ولم تستشره حتى عند قسوة قلبك!.

روى أبو سعيد في تاريخ الرقة، عن عمرو بن ميمون قال: انطلقت مع أبي ميمون بن مهران إلى الحسن البصري، قال ميمون: يابني! خذ بيدي إلى الحسن، فذهبوا إلى الحسن البصري وطرقوا الباب، فخرجت الجارية، فقالت: مَنْ؟ قال: ميمون بن مهران، فقالت الجارية: يا شيخ السوء! ما أبقاك إلى هذا الزمان السوء؟ فبكى ميمون - وكان كاتبًا لعمر بن عبد العزيز - بكى حتى علا نحيبه، فخرج الحسن البصري، فلما رأه اعتنقه، فقال ميمون: (يا أبي سعيد! آنسـتـ من قلـبيـ غـلـظـةـ، فـاسـتـلـنـ لـيـ) أي: قـلـ لـيـ شـيـئـاـ يـلـيـهـ. (أـفـاصـومـ لـهـ يـاـ أـبـاـ سـعـيدـ؟ـ)، يعني: أـيـلـيـنـ قـلـبـيـ لـوـ صـمـتـ؟ـ فـقـالـ الحـسـنـ:

بسم الله الرحمن الرحيم، أَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ * مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [الشعراء: 205-207]. هناك خلقه الله عز وجل فينا، وهو خلق التأسي، إذا أصيـبـ بمـصـيـبةـ وـتـرـىـ غيرـكـ أـصـيـبـ بمـصـيـبةـ تـخـفـ المصـيـبةـ عـلـيـكـ. من رأـيـ مـصـيـبةـ غـيرـهـ هـاـنـتـ مـصـيـبةـ عـلـيـهـ، كما تـقـولـ الخـنـسـاءـ: ولـوـلـاـ كـثـرـةـ الـبـاـكـيـنـ حـوـلـيـ عـلـىـ إـخـوـاـنـهـ لـقـتـلـتـ نـفـسـيـ فـعـنـدـمـاـ تـكـوـنـ هـنـاكـ مـصـيـبةـ عـامـةـ.. طـاعـونـ مـثـلـاـ، وـكـلـ بـيـتـ فـرـدـ مـيـتـ، تـجـدـ

أن المصيبة تخف عليك من كثرة الموت، لكن عندما تكون وحدك المصيبة تكبر عليك.

ورينا عز وجل -في هذا الخلق أي: خلق التأسي- قال لنا: لا تظنن إذا دخلت النار فرأيت ملايين الخلق يصرخون من النار أن هذا يخيف عليك؛ لا، هذا فقط كان في الدنيا، قال تعالى: وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ [الزخرف: 39] .. لا يعني أنكم مشتركون في العذاب أن ذلك يخيف عليك حين تراه يصرخ بجانبك، لا.

فانظر إلى الآيات .. سنين متعدة، سنين .. قليل، ثم جاءهم ما كانوا يُوعَدون [الشعراء: 206] الموت أو العذاب: مَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ [الشعراء: 207].

كل حيٌ سيموت ليس في الدنيا ثبوت
حركات سوف تفنى ثم يتلوها خبوت
 وكلامُ ليس يحلو بعده إلا السكت
أيها الساكر قل لي أين ذاك الجبروت
ليت شعري أهמוד ما أراه أم قنوت
أين أملأكُ لهم في كل أفق ملوكوت
زالت التيحان عنهم وخلت تلك البيوت
أصبحت أوطانهم من بعدهم وهي خبوت
لا سميح يفقه القول ولا حيٌ يقوت
عُمرت منهم قبورٌ وخلت منهم بيوت
إنما الدنيا خيال باطل سوف يفوت
ليس للإنسان فيها غير تقوى الله قوت
فأنت انظر ما مكان الدين في نفسك، ولا تخطون بقدمك خطوة إلا إذا سألت
أهل العلم أيحل لي أن أخطو أم لا؟
فإذا قالوا لك: لا يحل، فقف.

الإمام البخاري رحمه الله، ذكر في ترجمة أبيه شيئاً واحداً تعجبون له، لما ذكر والده قال: (رأى حماد بن زيد) رأاه بعينيه .. هذه منقبة كبيرة جداً، لو وجد

لأبيه منقبةً أعلى من هذه لذكرها، لكن يا لحظه!! رأى حماد بن زيد بعينيه!! وليس هذا فقط، قال: وصافح ابن المبارك بكلتا يديه) والدته دعت له، يسلم على ابن المبارك بيديه الاثنين، هذه هي المنقبة الخاصة بوالد الإمام البخاري.

وابنه يريد أن يذكر له منقبة محترمة، فيذكر هذه المنقبة: (رأى حماد بن زيد وصافح ابن المبارك بكلتا يديه)، فمن تمام محبتك أن لا تخطو خطوةً إلى الإمام مهما قلت ودققت وكانت صغيرة في نظرك إلا وتسأل أهل العلم: ما حكم الله فيها؟ ماذا قال النبي صلى الله عليه وسلم فيها؟! فإذا فعلت ذلك كان ترجمةً صادقةً لمحبتك، فالبدار.. البدار قبل الفوات! والعودة العود إلى حظيرة السنة!.

نسأله تبارك وتعالى أن يقبضنا وإياكم على التوحيد الخالص، اللهم ارزقنا حبك، وحب من أحبك، وحب ما يقربنا إلى حبك، اللهم اجعل حبك أحب إلينا من الماء البارد. أقول قولي هذا وأستغفر لله العظيم لي ولكلم، وصلى الله وسلم وببارك على نبينا محمد، والحمد لله رب العالمين.

الكلمات المفتاحية:

#السنة-النبوية#دفاع-عن-السنة

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعني بالضرورة تزكية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.